بين خروفين

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

اجتمع ليلةَ الأضحى خروفان من أضاحى العيد ، فتكلّما ؛ فماذا يقولان ؟

هـذا هو الموضوع الذى استخرجه لى أصغرُ أولادى (الأستاذ) عبد الرحمن ، وسألنى أن أكتب فيه للرسالة ، وهو أصغر قرائها سنًّا تَرِفُّ عليه النسمةُ الثالثةَ عشرةَ من ربيع حياته — بارك الله لها فيها حاضرةً ومُقبِلة

ولأستاذنا هـذا كلمةٌ هى شعارُه الخاصُّ به فى الحياة ، يحفظُها لتحفظَه ، فلا يميلُ عن مَدْرَجتها ، ولا يخرج من معناها ؛ وهى هذه الكلمةُ العربية : « كالفَرَسِ الكريم فى مَيْعَةِ حُضْرِه[1] ، كلّما ذهب منه شَوْطٌ جاء شوط » .

فهو يعلم من هذا أن كرم الأصل فى كرم الفعل ، ولا يُغنى شىءٌ منهما عن شىء ؛ وأن الدمَ الحرَّ الكريمَ يكون مُضاعفَ القوّة بطبيعته ، عظيمَ الأمل بهذه القوّة المضاعفَة ، نزّاعاً إلى السبق بمقدار أمله العظيم ، مترفّعاً عن الضعف والهُوَينا بهذا النزوع ، متميزاً فى نبوغ عمله وإبداعه باجتماع هذه الخصال فيه على أتمِّها وأحسنِها . فمِن ثمّ لا يَرى الحرُّ الكريم إلا أن يبلغَ الأمَدَ الأبعدَ فى كل ما يحاوله ، فلا يألو أن يبذلَ جهدَه إلى غاية الطاقة ومبلغ القدرة ، مستمِداً قوةً بعد قوة ، محقّقاً السحرَ القادر الذى فى نفسه ، متلقّياً منه وسائلَ الاعجاز فى أعماله ، مُرسِلاً فى نبوغه من توهّج دمه أضواءً كأضواء النجم ، تُثبتُ لكل ذى عينين أنه النجمُ لا شىءٌ آخر

ولما قدّم إلىّ (الأستاذ) موضوعَه فى هذا الوزن المدرسىّ — وأظنه قد نزَعته حاجةٌ مدرسيةٌ إليـه — قلتُ : حُبًّا وكرامة . وهأنذا أكتبه منبعثاً فيه « كالفرس الكريم فى ميعة حُضْرِه » . . . ولعـل الأستاذ حين يقرؤه لا يُسَوِّدُ فيـه علاماتٍ كثيرةً بقلمه الأحمر . . . !

***

اجتمع ليـلة الأضحى خروفان من الأضاحى فى دارنا : أما أحدُهما فكَبْشٌ أقْرَنُ ، يحملُ على رأسه من قرنيه العظيمين شجرةَ السنين ، وقد انتهى سِمَنُه حتى ضاق جِلدُه بلحمه ، وسَحَ بدنُه بالشحم سحّاً ، فاذا تحرّكَ خِلْتَه سحابةً يضطربُ بعضها فى بعض ، ويهتزّ شىء منهـا فى شىء ؛ وله وافرةٌ[2] يجرها خلفه جرّاً ، فاذا رأيتَها من بعيد حسبتَها حَمَلاً يتبع أباه ؛ وهو أصْوَفُ ، قد سَبَغَ صُوفُه واستكثفَ وترا كَمَ عليه ؛ فاذا مشى تَبَخْتَرَ فيه تبخترَ الغانية فى حُلّتها ، كأنما يشعر مثلَ شعورها أنه يلبسُ مَسرّاتِ جسمِه لا ثوبَ جسمه ؛ وهو من اجتماع قوّته وجبرُوته أشبهُ بالقلعة يعلوها من هامته كالبرج الحربىّ فيـه مِدفعان بارزان . وتراه أبداً مُصعراً خدّه كأنه أمير من الأبطال ، إذا جلس حيث كان شعر أنه جالسٌ فى أمره ونهيه ، لا يخرج أحدٌ من نهيه ولا أمره

وأما الآخر فهو جَذَعٌ فى رأس الحوْل الأول من مَوْلده ، لم يدْرِكْ بعـدُ أن يُضحى ، ولكن جىء به للقَرَمِ إلى لحمه الغَضّ ؛ فالأول أُضْحِيَّةٌ وهـذا أُكولَة ؛ وذاك يتصدّقُ بلحمه كله على الفقراء ، وهـذا يُتصدق بثُلثيه ويبقى الثُلثُ طعاماً لأهل الدار

وكان فى لِينه وترَجرُجه وظَرف تكوينه ومَرَح طبعه ، كأنما يُصوِّر المرأةَ آنسةً رقيقةً متودِّدة . أما ذاك الضخمُ العاتى المتجبِّر الشامخُ ، فهو صورة الرجل الوحشىّ أخرجته الغابة التى تخرج الأسدَ والحيّةَ وجذُوعَ الدوحة الضخمة ، وجعلتْ فيه من كل شىء منها شيئاً يُخافُ ويتّقى

وكان الجذَعُ يَثْغُو لا ينقطع ثُغاؤُه ، فقد أُخذ من قطيعه انتزاعاً فأحسّ الوحشةَ وتنبهتْ فيـه غريزةُ الخوف من الذئب ، فزادته إلى الوحشة قَلَقاً واضطرابا ؛ وكان لا يستطيع أن يَنْفلت ، فهو كأنما يهربُ فى الصوت ويعدو فيه عدْوا

أما الكبشُ فيرى مثلَ هـذا مَسَبَّةً لقرنيه العظيمين ، وهو إذا كان فى القطيع كان كَبْشَه وحاميَه والمُقَدَّمَ فيه ، فيكون القطيعُ معه وفى كَنَفه ولا يكون هو عنـد نفسه مع القطيع ؛ فاذا فقـد جماعتَه لم يكن فى منزلة المنتظر أن يَلحق

---

(١) هذا كما يقال بالعامية : فى عز جريه

(١) ألية عظيمة ويقال كبش أليان اذا كان عظيم الألية

بغيره ليحتمى به فيقلق ويضطرب ، ولكنه فى منزلة المرتقب أن يلحق به غيره طلباً لحمايته وذماره ، فهو ساكن رابط الجأش مغتبط النفس ، كأنما يتصدق بالانتظار . . .

* * *

فلما أدبر النهار وأقبل الليل ، جىء للخروفين بالكلأ من هذا البرسيم يعتلفانه ، فأحس الكبش أن فى الكلأ شيئاً لم يدر ماهو ، وانقبضت نفسه لما كانت تنبسط إليه من قبل ، وعرته كآبة من روحه ، كأنما أدركت هذه الروح أنه آخر رزقه على الأرض ، فانكسر وظهر على وجهه معنى الذبح قبل أن يذبح ، وعاف أن يطعم ، ورجع كأول فطامه عن أمه لا يعرف كيف يأكل ، ولا يتناول من أكله إلا أدنى تناول

وكأنما جثم الظلام على شحمه ولحمه ؛ فانه متى ثقل الهم على نفس من الأنفس ثقل على ساعتها التى تكون فيها ، فتطول كآبتها ويطول وقتها جميعاً . فأراد الكبش أن يتفرج مما به ، وينفس عن صدره شيئاً ، وكان الصغير قد أنس إلى المكان والظلمة ، وأقبل يعتلف ويخضم الكلأ ، فقال له الكبش : أراك فارهاً يا ابن أخى ، كأنك لا تجد ما أجد ؛ إنى والله أعلم علماً لا تعلمه ، وإنى لأحس أن القدر طريقه علينا فى هذه الليلة ، فهو مصبحنا ما من ذلك بد

قال الصغير : أتعنى الذئب ؟

قال : ليته هو ، فأنا لك به لو أنه الذئب ؛ إن صوفى هذا درع من أظافره ، وهو كالشبكة ينشب فيها الظفر ولا يتخلص ، ومن قرنى هذين ترس ورمح ، فأنا واثق من إحراز نفسى فى قتاله ، ومن أحرز نفسه من عدوه فذاك قتل عدوه ، فان لم يقتله فقد غاظه بالهزيمة ، وذاك عند الأبطال فن من القتل . وهذا القرن الملتف الأعقد المذرب كالسنان ، لايكاد يراه الذئب حتى يعلم أنه حاطمة عظامه ، فيحدث له من الفزع ما تنحل به قوته ، فما يواثبنى إلا متخاذلاً ، ولا يقدم على إلا توهم الذئبية للخروفية ، فان أساس القوة والضعف كليهما فى النفوس والطبيعة ، غير أنه لايعلم أنى خرجت من الخروفية الى الجاموسية ... ! فما يعلمه ذلك إلا بقر بطنه أو التطويح به من فوق هذا القرن ، أقذفه قذفة عالية تلقيه من حالق ، فتدق عظامه وتحطم قوائمه !

قال الصغير : فماذا تخشى بعد الذئب ؟ إن كانت العصا فهى إنما تضرب منك الصوف لا الظهر

قال الكبش : ويحك ! وأى خروف يخشى العصا ؟ وهى إنما تكون عصا من يعلفه ويرعاه ، فهى تنزل عليه كما تنزل على ابن آدم أقدار ربه ، لاحطماً ولكن تأديباً أو إرشاداً أو تهويلاً ؛ ومن قبلها النعمة وتكون معها النعمة وتجىء بعدها النعمة ؛ أفبلغ الكفر منا ما يبلغ كفر الانسان بنعمة ربه ؛ إذا أنعم عليه أعرض ونأى بجانبه ، وإذا مسه الشر انطلق ذا صراخ عريض ؟

وكيف ترانى (ويحك) أخشى الذئب أو العصا ، وأنا من سلالة الكبش الأسدى ؟

قال الصغير : وما الكبش الأسدى ، وكيف علمت أنك من نجله ، ولا علم لى أنا إلا هذا الكلأ والعلف والماء ، والمراح والمغدى ؟

قال الكبش : لقد أدركت أمى وهى نعجة فخمة كبيرة ، وأدركت معها جدتى وقد أفرط عليها الكبر حتى ذهب قمها ، وأدركت معهما جدى وهو كبش هرم متقدد أعجف كأنه عظام مغطاة ، فمن هؤلاء أخذت ورويت وحفظت

حدثتنى أمى ، عن أبيها ، عن أبيه ، قالت : إن فخر جنسنا من الغنم يرجع الى كبش الفداء الذى فدى الله به اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام ، وكان كبشاً أبيض أقرن أعين ، اسمه حرير

(قال) . واعلم يا ابن أخى أن مما انفردت أنا به من العلم فلم يدركه غيرى ، أن جدنا هذا كان مكسواً بالحرير لا بالصوف ، فلذلك سمى حريراً . . . (قالت أمى) : والمحفوظ عند علمائنا أن ذاك هو الكبش الذى قربه هابيل حين قتل أخاه لتتم البلية على هذه الأرض بدم الانسان والحيوان معاً (قالوا) : فتقبل منه وأرسل الكبش الى الجنة فبقى يرعى فيها حتى كان اليوم الذى هم فيه ابرهيم أن يذبح ابنه تحقيقاً لرؤيا النبوة ، وطاعة لما ابتلى به من ذلك الامتحان ، وليثبت أن المؤمن بالله إذا قوى إيمانه لم يجزع من أمر الله ولو جر السكين على عنق ابنه ، وهو إنما يجرها على ابنه وعلى قلبه !

(قالت) فهذا هو فخر جنسنا كله

أما فخر سُلالتي أنا ، فذاك ما حدثتني به جدتي ، ترويه عن أبيها عن جدها ، وذلك حين توسمت فيّ مخايل البطولة ، ورجت أن أحفظ التاريخ . قالت : إن أصلنا من دمشق ، وإنه كان في هذه المدينة رجل سَبّاع ، قد اتخذ شِبلَ أسدٍ فرباه وراضه حتى كبر ، وصار يطلب الخيل ، وتأذّى به الناس ، فقيل للأمير[1] : هذا السبُعُ قد آذى الناس ، والخيلُ تنفر منه وتجد من ريحه ريحَ الموت ، وهو ما زال رابضاً ليله ونهاره على سُدة بالقرب من دارك . فأمر فجاء به السّباعُ وأدخله الى القصر ، ثم أمر بخروف مما اتُّخذ في مطبخه للذبح ، وأدخلوه الى قاعة ، وجاء السباع فأطلق الأسد عليه ، واجتمعوا يرون كيف يسطو به ويفترسه

قالت جدتي : فحدّثني أبي ، قال : حدّثني جدك : أن السباع أطلق الأسد من ساجوره[2] وأرسله ، فكانت المعجزة التي لم يفُز بها خروف ولم تؤثر قطُّ إلا عن جدنا ، فانه حسب الأسد خروفاً أجمّ لا قرون له ، ورأى دِقة خصره ، وضُمور جنبيه ، ورأى له ذيلاً كالألية المُفرغةِ الميّتة ، فظنه من مهازيل الغنم التي قتلها الجدْب ، وكان هو شبعان ريّان ، فما كذّب أن حمل على الأســـد ونطحه ، فانهزم السبعُ مما أذهله من هذه المفاجأة ، وحسب جدّنا سَبُعاً قد زاده الله أسلحةً من قرنيه ، فاعتراه الخوف وأدبر لايلوى . وطمع جدُّنا فيه فاتّبعه ، ومازال يطارده وينطحه ، والأسد يفرُّ من وجهه ويدور حول البركة ، والقوم قد غلبهم الضحك ، والأمير ما علك نفسه إعجاباً ونخراً بجدّنا فقال : هذا سبُعٌ لئيم ، خذوه فأخرجوه ، ثم اذبحوه ، ثم اسلخوه . فأخذ الأسد وذُبح ، وأعتق جدُّنا من الذبح ، وكان لنا في تاريخ الدّنيا انسانها وحيوانها أثران عظيمان ، فجدُّنا الأول كان فداءً لابن نبيّ ، وجدنا الثاني كان الأسدُ فداءه !

* * *

قال الصغير للكبش : قلت : الذبح ، والفداء من الذبح ؛ فما الذبح ؟

قال الكبش : هذه السنّة الجارية بعد جدنا الأعظم ، وهي الباقية آخر الدهر ؛ فينبغي لكلٍّ منا أن يكون فداءً لابن آدم !

قال الصغير : أبن آدم هذا الذي يخدمنا ويحتزُّ لنا الكلأ ، ويقدم لنا العلف ، ويمشي وراءنا فنسحبه الى هنا وهنا . . . ؟ تالله ما أظن الدنيا إلا قد انقلبت ، أوْ لا ، فأنت يا أخا جدّي . . . قد كبرتَ وخرفت !

قال الكبش : ويحك يا أبله ! متى تنحلل هذه العقدة التي في عقلك ؟ انك لو علمت ما أعلم لما اطمأنت بك الأرض ، ولَرَجَفْتَ من القلق والاضطراب كحبة القمح في غِربالٍ يهتزُّ وينتفض !

قال الصغير : أتعني ذلك الغربال وذلك القمح وما كان في القرية ، إذ تناولت ربةُ الدار غِربالَها تنفض به قمحها ، فغافلتُها ونطحتُ الغربالَ فانقلب عن يدها وانتثر الحب ، فأسرعتُ فيه التقاطاً حتى ملأتُ فمي قبل أن تُزيحني المرأةُ عنه ؟

فهزّ الكبش رأسه فِعْلَ مَن يريد الابتسامَ ولا يستطيعه ، وقال : أرأيتَ حانوتَ القصّاب ونحن نمرّ اليوم في السوق ؟

قال : وما حانوت القصاب ؟

قال : أرأيتَ ذلك السَّليخَ من الغنم البيض المُعلّقة في تلك المَعاليق لا جِلْدَ عليها ولا صوف وليس لها أرؤسٌ ولا قوائم ؟

قال الصغير : وما ذاك السّليخ ؟ إنه إن صح ما حدّثتني به عن أمك ، فهذه غنم الجنة ، تبيت ترعى هناك ثم تجيء الى الأرض مع الصبح ، وإني لمترقبٌ شمسَ الغد ، لأذهبَ فأراها وأملأ عينيّ منها

قال : اسمع أيها الأبله ! إن شمس الغد ستشعر بها من تحتك لا من فوقك . . . ! لقد رأيتُ أخي مذ كنتُ جذَعاً مثلك ؛ ورأيت صاحبنا الذي كان يعلفه ويُسمّنه ، قد أخذه فاضطجعه ، فجثم على صدره شراً من الذئب ، وجاء بشفرةٍ بيضاءَ لامعة ، فجرّها على حلقه ، فاذا دمُه يَشْخُبُ ويتفجر ، وجعل السكين ينتفض ويدحَصُ برجله ، ثم سكَنَ وبَرَد ؛

(١) هذه القصة شهدها الأمير الأديب (أسامة بن منقذ) المتوفى سنة ٥٨٤ للهجرة ، وقصها في كتابه (الاعتبار) ، والأمير المذكور في القصة هو (معين الدين أنر) وزير شهاب الدين محمود . وقد تصرفنا في عبارة القصة

(٢) الساجور : سلسلة الأسد والكلب ونحوها

فقام الرجل فَفَصَّلَ عنقه ، ثم نحس في جلده ونفخه حتى تطبّل ورجع كالقربة التي رأيتها في القرية مملوءة ماء فحسبتها أمك ؛ ثم شقّ فيه شقاً طويلاً . ثم أدخل يده بين الجلد والصّفاق ، ثم كشطه وسحَنَ الشحمَ عن جنبيه ، فعاد السكينُ أبيضَ لا جلد له ولا صوف عليه ، ثم بقر بطنه وأخرج ما فيها ، ثم حطم قوائمه ، ثم شدّه فعلّقه فصار سليخاً كغنم الجنة التي زعمت ؛ وهذا — أيها الأبله — هو الذبح والسلخ !

قال الصغير : وما الذي أحدث هذا كلّه ؟

قال : الشَّفرةُ البيضاء التي يسمونها السّكين !

قال الصغير : فقد كانت الشفرةُ عند حلقه حِيالَ فمه ؛ فلماذا لم ينتزعها فيأكلها ؟

قال الكبش : أيها الأبله الذي لا يعلم شيئاً ولا يحفظ شيئاً ، لو كانت خضراء لأكلها !

قال : وما خَطْبُ أن تجيء الشَّفرةُ على العنق ، أفلم يكن الحبل في عنقك أنت فجعلتَ تجاذب فيه الرجل حتى أعييتَه ، ولولا أني مشيت أمامك لما انقدتَ له ؟

قال الكبش : ما أدري والله كيف أفهمك أن هذا كلّه سيَجري عليك ، فسترى أموراً تنكرها ، فتعرفُ ما الذبح والسلخ ، ثم تصير أشلاءً في القدور تُضرَم عليها النار ، فيأكلك ابن آدم كما تأكل أنت هذا الكلأ . . . !

قال الصغير : وماذا عليّ أن يأكلني ابن آدم ، ألا تراني آكل العُشب ، فهل سمعتَ عوداً منه يقول : الرجل والسكين ، والذبح والسلخ . . . ؟

قال الكبش في نفسه : لَعَمري إن قوة الشباب في الشباب أقوى من حكمة الشيوخ في الشيوخ ، وما نفعُ الحكمة إذا لم تكن إلا رأياً ليس له ما يُمضيه ، كرأي الشيخ الفاني ؛ يرى بعقله الصوابَ حين يكون جسمُه هو الخطأ مركّباً في ضعفه غلطةً على غلطةٍ لا عُضواً على عضو . . ؟ وهل الرأيُ الصحيحُ للعالَم الذي نعيش فيه إلا بالجسم الذي نعيش به ؛ وما جَدْوَى أن يعرفَ الكبيرُ حكمةَ الموت ، وهو من الضعف بحيث تنكسر نفسُه للمرض الهيّن ، فضلاً عن المرض المُعْضِل ، فضلاً عن المرض المُزْمِن ، فضلاً عن الموت بنفسه ؛ وما خَطَرُ أن يجهلَ الشبابُ تلك الحكمة ، وهو من قوة النفس بحيث لا يبالي الموتَ ، فضلاً عن المرض ؟

لو أُذِنَ الشابُ من الفتيان بيوم انقطاع أجله ، وعلم أنه مُصْبِحُه أو مُمْسيه ، لأمدّته نفسُه بأرواح السنينَ الطويلة حتى ليرى أن صبح الغد كأنما يأتي من وراء ثلاثين أو أربعين سنة ؛ فما يَتبيّنه إلا كالفكر المنسيّ مضى عليه ثلاثون سنةً أو أربعون . ولو أُذِنَ الشيخُ بيوم مَصْرَعه ، وأيقن أن له مُهْلةً إلى تمام الحول ، لطار به الذُّعْرُ واستفرَغه الوَجَل من ساعته ورأى يومَه البعيدَ أقربَ إليه من الصبح ، وابتلته طبيعةُ جسمه المختل بالوساوس الكثيرة ، تجتلبها له كما تجتلبُ الرياحَ صُدُوعُ المنزل الخَرِب . فذاك بالشباب يقبض على الزمن ، فيعيش في اليوم القصير مثلَ العام رَخِياً ممدوداً ، فهو رابطٌ جَلْد ؛ وهذا بالكِبَر يقبض الزمنُ عليه ، فيعيش في العام الطويل مثلَ اليوم متلاحقاً آخرُه بأوّله ، فهو قلِقٌ طائر . ولا طبيعة للزمن إلا طبيعةُ الشعور به ، ولا حقيقة للأيام إلا ما تضعه النفسُ في الأيام

* * *

ثم إن الكبش نظر فرأى الصغير قد أخذته عينُه واستثقلَ نوما ، فقال : هنيئاً لمن كان فيه سرُّ الأيام الممدودة . إن هذا السر هو كسِرِّ النبات الأخضر ، لا يُقْطَع من ناحية إلا ظهر من غيرها ساخراً هازئاً ، قائلاً على المصائب : هأنذا . .

فهذا الصغير ينام ملءَ عينيه والشفرةُ محدودةٌ له ، والذبح بعد ساعات قليلة ؛ كأنما هو في زمنين أحدهما من نفسه ، فيه ينام ، وبه يلهو ، وبه يسخر من الزمن الآخر وما فيه وما يجلبه

إن الألم هو فهم الألم لا غير . فما أقبح علمَ العقل إذا لم يكن معه جهلُ النفس به وإنكارُها إياه . حَسْبُ العلم والعلماء في السخرية بهم وبه هذه الحقيقةُ من النفس . أنا لو ناطحتُ كبشاً من قُرُوم الكباش ، ووقفتُ أفكّر وأدبّر وأتأمل ، وأعتبرُ شيئاً بشيء — ذهب فكري بقوتي واسترخى عَصَبي وتحلّل غضبي كلّه وكان العلمُ وبالاً عليّ ؛ فإن حاجتي حينئذ إلى الروح وقُواها وأسبابها أضعافُ حاجتي إلى العلم . والروح لا تعرف شيئاً اسمه الموتُ ، ولا شيئاً اسمه الوَجَع ؛ وإنما تعرف حظّها

من اليقين ، وهدوءَها بهذا الحظ ، واستقرارَها مؤمنةً مادامت هادئةً مستيقنة

وقد واللهِ صدق هــذا الجَذَعُ الصغير ؛ فما على أحدنا أن يأكله الانسان . وهل أكْلُنا نحن هــذا العُشبَ ، وأكْلُ الانسان إيانا ، وأكلُ الموتِ للانسان — هل كل ذلك إلا وضعٌ للخاتمة فى شكل من أشكالها ؟

يُشبهُ واللهِ إن أنا احتججتُ على الذبح واغتممتُ له أن أكون كخروف أحمقَ لا عقل له ، فظنّ إطعامَ الانسان إياه من باب إطعامه ابنَه وابنتَه وامرأته ومن تجب عليه نفقتُه ! وهل أوجبَ نفقتى على الانسان إلا لحمى ؟ فاذا استحقّ له فلعمرى ما ينبغى لى أن أزعم أنه ظلمنى اللحمَ إلا إذا أقررتُ على نفسى بديًا أنى أنا ظلمْتُه العَلَفَ وسرقتُه منه

كلُّ حىّ فانما هو شىء للحياة أَعْطَيها على شرطها ، وشرطُها أن تنتهى ؛ فسعادته فى أن يعرف هــذا ويقرّرَ نفسه عليه حتى يستيقنه كما يستيقنُ أن المطر أول فصل الكلأ الأخضر . فاذا فعل وأيقن واطمأن ، جاءت النهاية متممةً له لا ناقصة إياه ، وجرتْ مع العمر مجرى واحداً وكان قد عرفها وأعدّها . أما إذا حسب الحىُّ أنه شىء فى الحياة ، وقد أعطيَها على شرطه هو ، من توهّم الطمع فى البقاء والنعيم ، فكلُّ شقاء الحى فى وهمه ذاك وفى عمله على هــذا الوهم ؛ إذ لا تكون النهاية حينئذ فى مجيئها إلا كالعقوبة أُنزلتْ بالمعركة ، وتجىء هادمةً منغّصة ، ويبلغ من تنكيدها أن تسبقها آلامُها ؛ فتؤلمَ قبل أن تجىء ، شراً مما تؤلم حين تجىء !

لقــد كان جدّى والله حكيماً يوم قال لى : إن الذى يعيش مترقباً النهايةَ يعيش مُعداً لها ؛ فان كان معداً لها عاش راضياً بها ، فان عاش راضياً بها كان عمرُه فى حاضرٍ مستمرّ ، كأنه فى ساعةٍ واحدة يشهد أولها ويُحس آخرَها ، فلا يستطيع الزمن أن ينغص عليه ما دام ينقاد معه وينسجم فيه ، غيرَ محاول فى الليل أن يبعد الصبح ، ولا فى الصبح أن يبعد الليــل . قال لى جدّى : والانسانُ وحده هو التعس الذى يحاولُ طردَ نهايته ، فيشقى شقاءَ الكبش الأخرق الذى يريد أن يطرد الليل ، فيبيت ينطح الظلمةَ المُتدَجيةَ على الأرض ، وهو لحمقه يظن أنه ينطح الليلَ بقرنيه ويزحزحُه . . . !

وكم قال لى ذلك الجد الحكيم وهو يعظنى : إن الحيوان منا إذا جمع على نفسه هماً واحداً صار بهذا الهم إنساناً تعساً شقياً ، يُعطى الحياةَ فيقلبها بنفسه على نفسه شيئاً كالموت ، أو موتاً بلا شىء . . . !

* * *

وتحرك الصغير من نومه ، فقال له الكبش : إنه ليقع فى قلبى أنك الساعة كنتَ فى شأنٍ عظيم ، فما بالك منتفخاً وأنت ههنا فى المَنْحرَ لا فى المرعى !

قال الصغير : يا أخا جدّى . . . لقد تحققتُ أنك هَرِمتَ وخَرِفتَ ، وأصبحتَ تَمجُّ اللعابَ والرأى . . . !

قال الكبش : فماذاك ويلك ؟

قال : إنك قلتَ : إن هذا الانســان غادٍ علينا بالشَّفرة البيضاء ، ووصفتَ الذبح والسلخ والأكل ؛ وأنا الساعة قد نمتُ فرأيتُ فيما أرى ، أننى نطحتُ ذلك الرجل الذى جاء بنا إلى هنا ، وهجمْتُ به حتى صرعتُه ، ثم إنى أخذتُ الشفرةَ بأسنانى ، فتلْتُه فى نحره حتى ذبحته ، ثم اقتلدْتُ منه مُضغةً فلُكْتها فى فمى ؛ فما عرفت والله فيما عرفت خَشَناً ولا عَفناً فى الكلأ هو أقبح مذاقاً منه !

إن الانسان يستطيب لحمنا ويتغذى بنا ويعيش علينا ؛ فما أسْعدَنا أن نكونَ لغيرنا فائدةً وحياة ، وإذا كان الفَناءُ سعادةً نعطيها من أنفسنا ، فهذا الفناءُ هو ســعادةٌ نأخذها لأنفسنا . وما هلاكُ الحىّ لقاءَ منفعةٍ له أو منفعةٍ منه إلا انطلاقُ الحقيقة التى جملتْه حيّاً ، صارت حرةً فانطلقت تعملُ أفضلَ أعمالها

قال الكبير : لقد صدقتَ والله ، ونحن بهذا أعقلُ وأشرف من الانسان ؛ فانه يقضى العمر آخذاً لنفسه ، متكالباً على حظها ولا يعطى منها إلا بالقهر والغَلَبة والخوف . تعالَ أيها الذابح ، تعالَ خذ هذا اللحم وهذا الشحم ؛ تعالَ أيها الانسانُ لنعطيك ، تعالَ أيها الشحاذ ....!

طنطا مصطفى صادق الرافعى